

## الجزء الثاني

## رؤية مستقبلية لخطاب إدوارد سعيد

كمثال ذو أهمية خاصة لتفاعلات العقل العربي والعقل الأمريكي

## ● تمهيد

إذا كنا قد فقدنا مناظلاً ومفكراً كبيراً وأبناً باراً للثقافة العربية الإسلامية كإدوارد سعيد لم يبتلعه اليأس والاحباط في أحلك لحظات تاريخ هذه الأمة ، إلا أننا لم نفقد ما تركه من تراث علمي ونقدي وإعلامي على درجة عالية من الفيز والتميز . إن مثل هذا التراث سيظل محور اهتمام الباحثين الجادين المعنيين بالموضوعات التي خاض فيها ، وأهمها علم الأستشراق ونظريات النقد الأدبي المقارن وصورة العرب والمسلمين وكتابة التاريخ في الغرب ، والصراع العربي الإسرائيلي والعلاقات العربية الأمريكية من منظوره الخاص كعربي فلسطيني عاش في أمريكا وتجنس بالجنسية الأمريكية ولكن أدق وصف لحالته ما يقوله هو «أنه عاش دائماً في حالة من الاقتلاع الدائم . وفي منفي مستمر .

إن هناك مسئولية خاصة تقع على عاتقنا في إظهار الجوانب المضيفة الكثيرة في هذا التراث من أجل التفكير بأسلوب «ثقافة التراكم الإيجابي» لكي نستمر في حمل مشاعل التصدي للتسلط والهيمنة الاستعمارية بكل أشكالها في الداخل العربي وفي إدارة صراعات الخارج معاً وفي مقاومة كل دروب وصنوف اليأس والاحباط المتفاقمة. تلك المشاعل التي شارك في حملها إدوارد سعيد بجهود غير مسبوقة وبجرأة أكاديمية وأخلاقية تلقائية وفريدة .

## وسؤال هذه الدراسة المحوري في هذا الجزء الثالث هو :

كيف يمكننا تقديم قراءة خاصة لخطاب إدوارد سعيد تصب في إدارة خمس معادلات متداخلة وصعبة تدخل في إدارة المستقبل العربي وفي التدخل الإيجابي لإدارة الصراعات الراهنة والقادمة ؟

لقد رصدت في سياقات سابقة هذه المعادلات الخمس في إطار محاولة تدشين سيناريو معياري NORMATIVE SCENARIO لإدارة العلاقات بين العالم العربي الإسلامي والغرب<sup>(١)</sup> . وأرى الآن أهمية تقديم رؤية تحليلية لخطاب إدوارد سعيد من خلال فئات تلك المعادلات المتداخلة وهي كما يلي :

(١) محمد وجيه ، حسن ، سيناريوهات الحرب والسلام : دبلوماسية المسار الثاني من منظور لغويات التفاوض الاجتماعية والسياسية ، دار المعرج الدولية ، الرياض ١٩٩٩ .

## ■ المعادلة الأولى : السعى لمد رؤوس كبارى دبلوماسية فعالة

أى السعى لايجاد مساحة لترشيد العلاقات العربية مع الولايات المتحدة . فلا تتحول «العلاقات الاستراتيجية» القائمة إلى علاقات تبعية ولا تتحول السياسة الأمريكية إلى سياسة إسرائيلية عدوانية متطابقة تمام التطابق . فلا تترك مساحة لدينا على الأقل لتقليل حجم الاستعداد . فمن المعروف أن من المخططات الصهيونية وطبقاً لما ورد عن بنجوريون وشاريت هدم أى جسور تواصل إيجابى بين العالم العربى والغرب ، وفى خطاب إدوارد سعيد ما يتلامس مع هذه المعادلة بوضوح حينما يقول : «إن إسرائيل ليست هى أمريكا ولا ينبغى أن تكون ، وإن أمريكا ليست هى إسرائيل ولا ينبغى أن تكون ...» .

والمقصود عند السعى لتحويل هذه المعادلة إلى تحركات فعلية أن ندرك إنه وعلى الرغم من الانحياز الصارخ الأمريكى لإسرائيل . وعلى الرغم من التعاطف المبدئى الذى يكنه الأمريكى المسيحى من أن إسرائيل قد ذكرت فى العهد القديم وأن المسيحى ينتظر «عودة المسيح» و «أن من يلعن إسرائيل إنما يلعن الرب» . وما إلى ذلك من مقولات تستخدم بكثافة هذه الأيام لتبرير أى سياسات إسرائيلية ، وبالرغم من شيوع الصورة السلبية عن العرب بأنهم «متخلفون - همجيون» يكرهون الإسرائيليين الليبرالية المتقدمين ويريدون تدميرهم . إلا أن هذه الصور السلبية والمنطلقات المبدئية لدى الأمريكيين ليست مطلقة على العموم ، وأن هناك تيارات فى هذا المجتمع الأمريكى المركب تدرك وهمية هذا الزيف الشائع والمسيب ، ولقد عبرت هذه التيارات الأمريكية بوضوح عن قناعاتها فى لحظات وتفاعلات بعينها ، وعلينا وفى إطار محاولة ضبط هذه المعادلة الأولى أن نعمق حجم التواصل الفعال مع تلك التيارات الباحثة عن الحقيقة فى أمريكا وهو الأمر الذى تناولته فى عدة مقالات تفصيلية سابقة وألا يتحول السخط والغضب المبرر شعبياً من تحركات سياسة خاطئة ضد العرب والمسلمين إلى سحابة من عدم الروية فى غمار الأحداث للتيارات الأخرى المعارضة والمتعاطفة معنا بهدف تحويل هذا التعاطف إلى فعل إيجابى لأجندتنا وإذا تعمقنا فى دراسة خطاب إدوارد سعيد لوجدنا ما يتلامس تماماً بخصوص هذه المعادلة المهمة ولوجدنا ما يلى :

١ - إن إدوارد سعيد قد نجح بجهود فردية فى غاية التميز وفى لحظات تفاعلية كثيرة فى إدارة هذه المعادلة ، فتواصل إيجابياً مع التيارات الفاعلة الباحثة عن الحقيقة على الساحة الأمريكية ، وهنا نرى تجسيده للعلاقات الإيجابية بجمهور كبير من هؤلاء الباحثين عن الحقيقة من أمثال تشومسكى وكريستوفر هيتشنسون الذى كتب معه كتاباً بعنوان : «فى لوحة الضحايا» Blaming the victims<sup>(١)</sup> .

وكان ذلك في نقد التغطية الإعلامية السلبية والرائفة لحقائق الصراع العربي الإسرائيلي . لقد أوجد إدوارد سعيد بانتاجه العلمي الغزير وتواجهه في ساحة الرأي العام الأمريكي تأثيرات عميقة في وجدان الكثيرين من الأمريكيين ، كما أن نجح أن يكون في حد ذاته جبهة لمناظرة أمثال فؤاد عجمي وبرنارد لويس وغيرهم ممن اتسمت تحليلاتهم بالتحيز الواضح في تفاعلات بعينها وبالتفعيل السياسي المغلوط بدلاً من التناول العلمي المتعمق والمتوازن والعاقل . واستطاع في ذلك - أن ينازل «أعلام القائمة» في الولايات المتحدة وتمكن من اختراق هذا الإعلام المتصهين في لحظات تفاعلية عديدة ، فعلى الرغم من التحيز الشديد في وسائل الإعلام الأمريكي للصوت الإسرائيلي إلا أن متطلبات الشكل الإعلامي في الولايات المتحدة أن يتم عرض «الصوت الآخر» ، وبما أن إدوارد سعيد قد فرض نفسه على كونه «ذلك الصوت الآخر» لدى الرأي العام الأمريكي ، فلقد بات هذا الرأي العام معلقاً به ومتشوقاً لسماع رأيه - حتى وإن كان لاذعماً وناقداً إلى أقصى درجة - بل أن من اقترب وعاش هذا الرأي العام الأمريكي لعل أنه يقبل بل يعجب بمن تكون له المقومات والمعقولة لأمثال إدوارد سعيد الذي وكلما سنحت فرصة في ظل مناظرة إعلامية مع «الصوت الإسرائيلي» نجح سعيد في انتهازها وتحويل دفة الأمور لصالح قضيته الأولى وهي القضية الفلسطينية ، لأنه يملك مقومات الانتماء والتمرد على التسلط الاستعماري واللغة بالغة التأثير والوصول ويمكنه توظيف المداخل الثقافية والاقناعية التي كانت عادة ما تمكنه من تصحيح صور وأوضاع مغلوطة سواء فيما يتعلق بتزييف الحقائق المتعلقة بقضايا العالم العربي الإسلامي أو بأجندة الحقوق الفلسطينية وأن يزيل الزيف والتلفيق عن الكثير مما يروج له المروجون فيكشف سطحية حججهم وتهافتها أمام الحجة القوية ودبلوماسية إظهار الحقوق وقوتها البالغة التي تظهر الصدق من الكذب لدى الرأي العام .. وهذه الملكات التفاعلية العالية المستوى هي ما نفتقده إلى أبعد الحدود ، فحتى عندما تتاح فرص ثمينة لتفاعلين من العرب والمسلمين في وسائل الإعلام الأمريكية ، فإذن بهم يطيحون بها لقلة التدريب وقلة الممارسة والمعايشة لتضاريس وأساليب الطرح على الساحة الأمريكية ولا أستطيع أن أنسى أنه ومؤخراً استمعت لشخصية كبيرة من المسؤولين العرب وهو يتحدث بالإنجليزية ليقول «إننا سنقوم بحملة دعائية لشرح حقائق القضية الفلسطينية وإذن به يستخدم كلمة "PROPAGANDA" بالإنجليزية ، وهي كلمة ذات معنى سلبي للغاية تعني الكذب والتلفيق أساساً بدلاً من أن يقول بالإنجليزية كلمات مثل «حملة إعلامية» أو «حملة دبلوماسية» أو ما إلى ذلك من مفردات محايدة بعيداً عن «أساليب هزيمة الذات دون قصد بالطبع» .. ولكن «متحدثاً ترجم كلمة «دعاية» دون الاحساس بقيمة المعنى "Semantic Value" ، والأمثلة كثيرة ولا حصر لها

وتسهم سلباً في تعميق التنميط والقولبة السلبية التي تحاول العناصر الصهيونية تعميقها وهو الذي كان يحرمها منه مفكرنا الكبير إدوارد سعيد فكان يتخطى ذلك التنميط وتلك القولبة ببراعة ودهاء ليبادر بفتح الملفات الحقيقية والتي تزدهر فيها حجج الحق على الباطل والزيف .. ولقد كان إدوارد سعيد وفي عمق خطابه الذي يمكننا وصفه في إطار هذه المعادلة الأولى ناقداً وبشدة لمستوى وضحالة أساليب التناول والطرح والعرف من قبل ممثلي الدبلوماسية الرسمية العربية والفلسطينية في الإعلام الأمريكي وكان يقترح أسماء مثل ليلي شهيد وحنان عشراوي ومن هم على مستواهم الراقى في توصيل المعلومات الحقيقية بأساليب ومرامى اقناعية مدروسة يقبلها العقل العربي وتؤثر عليه . ولكن لم تكن هناك استجابة حقيقية وهو الأمر الذي عادة ما يحبط من مساعي تفعيل هذه المعادلة الأولى حتى ولو بالحد الأدنى المطلوب - عندما يكون الشخص غير المناسب في المكان غير المناسب - وهذه قضية تتعلق بالداخل العربي كله وتؤثر سلباً على إدارة صراعات الخارج واستنهاض طاقات الإبداع في الداخل .

#### • عندما التقى خطاب السادات وخطاب إدوارد سعيد في إطار المعادلة الأولى :

بالرغم من أن إدوارد سعيد يصنف على كونه متبنيًا للخطاب الناصري وأنصاره طبقاً لكثير من الآراء ، إلا أنه يصعب تصنيفه في خانة ساكنة كما يحاول البعض في العالم العربي - عادة - القيام بهذا النشاط .. فإدوارد سعيد كان فقط مع الخطاب الثوري التحرري الناصري الذي ساند القضية الفلسطينية خاصة فيما قبل ١٩٦٧ ، ولكنه كان في نفس الوقت ضد التسلط والوصاية أي كان مصدرها ولاشك أن للخطاب الناصري في تفاعلات عديدة نصيب كبير من ذلك خاصة وأن أسرته قد أصابها في مصر قدراً كبيراً من عقلية التسلط فاكشف بالتجربة أن عبد الناصر لم يكن ضد الشيوعيين فقط بل ضد أبناء الطبقة البرجوازية التي تنتمي لها أسرته والتي عاشت في القاهرة لعدة سنوات فكانت تعيش أجواء التأميم والمصادرات وشعرت كذلك بنوع من المطاردة النفسية نظراً لأن الأب يحمل الجنسية الأمريكية والأمور لا تخلو لدى العقلية التسلطية من التعميم الهائج في ذلك الوقت خاصة . أما فيما يتعلق بالخطاب الساداتي ، فإن إدوارد سعيد وبالرغم من هجائه لمسارات السلام الرسمية ، إلا أنه ولاشك قد تيقن من أهمية الخطاب الساداتي في الواقع الأمريكي وتأثيراته الإيجابية في الرأي العام الأمريكي ، حيث كان السادات يقول «لو استطعت سحب ولو ١٠ ٪ أو ١٥ ٪ من التأييد المطلق الأمريكي لإسرائيل لسعيت من خلالهما لأدشن أرضية أكشف من عليها هذا الكم من الزيف الفادح لحقائق

الصراع وتقليص دور هذا التأييد الأمريكي الأعمى لإسرائيل» . ولقد نجح السادات كثيراً في هذه الجزئية وأتذكر أن عالم اللغويات والمفكر السياسي الشهير تشومسكى قد ذكر لى في مقابلة معه<sup>(١)</sup> أنه ذكر هذا وقال أن من تأثير السادات الكبير على الرأى العام الأمريكى أنه لا يوجد ناشر فى أمريكا يريد أن يكتب كتاباً سلبياً عن السادات لأن القارئ الأمريكى الذى أقتنع بشخص السادات لن يشتري مثل هذا الكتاب أو يعتقد فى موضوعيته . وبالرغم من وجود أوجه خلل فى ممارسات هذا الخطاب الساداتى فى جزئيات معينها ليس هنا تناول سياقها بالتفصيل إلا أننا نرى هنا ومن خطاب إدوارد سعيد أنه كان على ثنائة كبيرة بتدشين نفس تلك الأرضية وتلك المعادلة وكان ينادى بإعداد العدة عربياً للتمكن من تحقيقها على النطاق الأوسع الذى كان ينبغي وأن يكون .

وفى هذا يلتقى خطابه بخطاب السادات فى هذه الجزئية تحديداً ولكن يبدو أن معضلات تفعيل مثل هذه المعادلة اليوم إن كل من السادات وإدوارد سعيد قد رحلا . وهناك تراجع كبير علس الساحة الأمريكية عربياً وإعلامياً ، ليس فقط بسبب التطورات الخارجة عن السيطرة على تلك الساحة الأمريكية ولكن لوجود تراجع عربى كبير فى الخوف من التفاعل الصحى وهيمنة عقلية الوصاية التى تبدو وأنها حارسة لفكر التوقع والاندهاش الداخلى والابتعاد عن «المخاطر الكبرى للخارج» .

وهو الأمر الذى يؤدى على تعطيل الطاقات وفقدان القدرة على التحرك الإيجابى وعائده ، ولعل من المهم توضيح هذا البعد فى خطاب إدوارد سعيد وذلك من خلال دفاعه فى إحدى مقالاته بجريدة الحياة عن الإعلامية رعدة درغام التى أتهمتها سلطات دولة عربية باتهامات بالغة الإساءة لمجرد تحاورها فى مؤتمر دولى مع شخصيات قيل أنها إسرائيلية أو متصهينة . والمشكلة من وجهة نظر إدوارد سعيد فى مثل هذه السياقات هو حجم التعامل مع «الشكل» الذى لا يزال يحكم العقلية العربية أساساً وليس الجوهر . والأحاساس الدوى للغاية بأن الحوار فى الخارج وعلى الساحة الدولية هو فرصة للآخرين «للاختراق» وليس فرصة «للعرب والمسلمين» للتفاعل الإيجابى والعلاقات الإيجابية وكشف الزيف وتوصيل الرسالة بقوة وفاعلية . بخصوص حقائق الصراع واجتذاب أصحاب الأرضيات المشتركة الباحثة عن الحقيقة وعن السلام العادل والمتوازن بكل ثقة واقتدار وأهمية السعى لتدشين قنوات مستمرة للتواصل الإيجابى والتى بدونها لا يمكن ممارسة التأثير الإيجابى فى خضم الأحداث المتتالية سريعة الإيقاع وبالتالي خلو الساحة تماماً لأنصار اللوى الصهيونى وغيره من الخصوم الذين ينادون اليوم بتقييد وتكبييل الجالية العربية الإسلامية واغلاق قنوات البعثات

(١) مقابلة أجراها كاتب السطور مع المفكر وعالم اللغويات نوام تشومسكى (Noam Chomsky) ، أخبار الأدب ، ٣/١٠/١٩٩٣ .

العلمية مع العالم العربي والإسلامي كما ينادون بترحيل الفلسطينيين من الضفة والقطاع إلى الأردن ومصر . وما إلى ذلك من دعوات إقصائية .

وتتمثل في التعامل الفعال مع التصدي لعمليات «تصنيع العدو» وكشف النقاب عن جذور الحملة العدائية والدعائية ضد العرب والمسلمين وتوضيح حقيقة الخطاب الدعائي الامبريالي الجديد ، الذي يسعى للسيطرة التامة على مقدرات الأمة العربية الإسلامية ومنازلة هذا الخطاب بالحجة والبرهان وعقلية التكاتف والتضامن العربي الإسلامي في شتى المجالات للتأثير العميق والحقيقي في عمق الغرب ذاته ، ليس فقط لفضح زيف التريديف العدائي للإسلام والإرهاب والعرب ، ولكن للاستعداد للتصدي لما هو أبعد من ذلك التريديف وإيضاح الثمن الكبير لسياسات سلسلة حروب العدوان المحتملة والجائرة على حساب دول الوطن العربي والعالم الإسلامي بعيداً عن المسميات الخاطئة «كالامبراطورية الفاضلة» و «حروبها العادلة» التي تطلقها «القلة الاستراتيجية» لصالح أن يكون بن لادن هو عرفات وشارون «إبراهيم المعروف» هو «رجل السلام» !! المعادلة هنا هي كيف نتعامل مع «التحالف ضد الإرهاب» وفي نفس الوقت نمنع الاستهداف الخاطيء لعمق بلاد العالم العربي الإسلامي .

المشكلة في إدارتنا لهذه المعادلة . أننا نسلك عقلية «إن وأخواتها» الاستاتيكية والإدانة من داخل العالم العربي وعدم الوصول المؤثر على الساحة الأمريكية . وفي إطار هذه المعادلة نجد نضالاً علمياً مهماً يمكننا أن نستثمره في إدارة تفاعلات هذه المعادلة وهو المتمثل في أعمال إدوارد سعيد التي حظيت بتغطية واسعة واهتمام كبير في الغرب كما في أعماله «الأستشراق»<sup>(١)</sup> و كذلك الثقافة والامبريالية الذي يوضح فيهما كيف أن عمل المستشرقين في وصف الشرق والشرقيين كان من باب التقزيم والاستكشاف والتمهيد لحقبة الفترة الامبريالية الاستعمارية التي عاش لحظاتها إدوارد سعيد ومن المهم أن تستخلص أنماط الحوار حول أعمال إدوارد سعيد هذه لأنها في عمق رصد طبيعة الحوار بين العالم العربي الإسلامي والغربي بفكر التراكم الإيجابي مع فهم خصوصية إدوارد سعيد ذاته ، لأن تجربته الشخصية واحساسه العميق على مدى عمره كله بالغربة لا تضاهيه أي تجربة أخرى فبعد أن انتزع وعائلته من فلسطين وعاش في القاهرة ، انتزعت التفاعلات ليجبر على العيش في أمريكا وهناك عاش غربة أخرى . هذه التجربة يذكرها دائماً فيذكر بالتفاصيل ذكرياته الأولى في مدرسة فيكتوريا كوليدج وأول مجابهة فتحت عينيه على فكر الاستشراق من خلال تفاعلاته مع المدرسين الإنجليز - الذين يذكرهم ويتذكرهم بالاسم . ويتذكر ما يتعلق بفكرهم بخصوص بلده الأصلي

## ■ المعادلة الثانية: التصدي

### «لتصنيع العداء»

Said, Edward, *Orientalism*, vintage Books, NY 1979.

(١)

فلسطين وبفكر المستشرقين الذين جاءوا إلى المنطقة بمركزية فكرية أوربية مغدقة ودورهم المتعمد أو غير المتعمد فى تعميق فجوة القوة بين الشرق والغرب . كذلك كان من الأعمال التى تعاملت مع عناصر هذه المعادلة الثانية كتابه المهم بعنوان «تغطية الإسلام» Covering Islam و «الثقافة والامبريالية»<sup>(١)</sup> .

لقد كشف سعيد النقاب عن هذا الزيف وهذا التصنيع المستمر الذى يأخذ اليوم حلقة جديدة «لعدو غير حقيقى» مفتعل من قبل المجمع العسكرى الامبراطورى الأمريكى ، وهنا يصف سعيد أمريكا وكأنها أصبحت «سجناً كبيراً تحت قبضة هذا المجمع العسكرى» وفى هذا يصرح إدوارد سعيد بافتقاد أمريكا التى يصفها اليوم بأنها «أمريكا الأخرى» The other America ، غير التى عهدنا وغير أمريكا حل كل المهاجرين الباحثين عن العدالة والحرية والمساواة» وهنا يقول سعيد «لقد شاهدنا انهياراً لبوتقة الانصهار "Melting Pot" أى أمريكا التى تتسع للجميع وتنصهر فى بوتقتها كل عوامل التاريخ والثقافة والاقتصاد لطبقات المجتمع الأمريكى بكل طوائفه المختلفة لتنتج مجتمعاً متماسكاً يعبر عن فكرة أمريكا المحورية ، إلا أن هذا المفهوم لم يتجسد وانهارت فكرته وحلت مكانه سياسات النزاع والخصومة . Policy of contestation

ويحذر سعيد من خطر كبير قائم اليوم حيث يقول «لا أعرف عن عربى أو مسلم واحد يعيش فى أمريكا اليوم ولا يشعر بالاستعداد بعد تحويله إلى «معسكر الأعداء» وأن العيش فى أمريكا فى هظه اللحظة ليتسم بالعداء والتغريب وأنه وعلى الرغم من التصريحات الرسمية الأمريكية التى تقول أن الإسلام والمسلمين ليسوا أعداء الولايات المتحدة ، إلا أن كل شئ فى الموقف الراهن يقول بعكس ذلك»<sup>(٢)</sup> .

ويفيدنا تحليل خطاب سعيد بأن السبيل الوحيد للخروج بأمرىكا من المأزق الراهن ولخروج العرب والمسلمين من نفس المأزق ، فلا بد من حركة عالمية كبرى تحشد كل المثقفين والمفكرين ونشطاء حقوق الإنسان وحركات السلام الحقيقية بالمساعدة لخروج العالم كله من حروب لم ولن تنتهى يعرف فيها الإرهاب بشكل أحادى وهو الأمر الذى سيؤدى إلى المزيد من الإرهاب بدلاً من وقفه . والسؤال المركزى هنا : كيف نقوم بدعم مثل الحركة أو بقيادتها واستغلال أى بوادر إيجابية فى هذا السياق وإعادة هيكلة نظرتنا للساحة الخارجة بما يتمشى مع استراتيجية كهذه ؟

Said, Edward, Covering Islam : How the Media and the Experts Determine How we see the Rest of the world, (١)

Panthon Books, NY. 1981. Said, Edward, Culture & Imperialism, Vintage Books, Np, 1979.

(٢) راجع مقال سعيد بعنوان "The Other America" ، الأهرام ويكلى ٢٠٠٣/٦/٣٠ .

هناك زاويتان رئيسيتان يمكننا الإشارة إليهما بخصوص هذه المعادلة :

- **الطرح الأول يقول :** إن البحث العلمي الأصلي لا بد وأن يبتعد عن أي أجندات سياسية حتى تكون للباحث حرية التناول والعرض والاتفاق أو الاختلاف واتخاذ ما يراه من مواقف بعيداً عن أي تأثيرات لأي أجندة سياسية بعينها .
- **الطرح الثاني يقول :** إن لكل شيء في هذا العالم منطلق أو أجندة سمها سياسية أو اجتماعية أو ما إلى ذلك من مسميات .. أي أن للباحث توجه يعبر عنه سواء عن تفعيل متعمد أو اندماج تلقائي لأجندة أو منطلق ما .. ولا يمكن فصل الاثنين في الواقع العملي .

وتحليل ملف إدوارد سعيد نجد به مادة ثرية للغاية للفهم العميق لزوايتي الطرح السابقتين .. فأعمال إدوارد سعيد قد فجرت ومنذ سنوات وإلى اليوم مناظرة علمية واسعة النطاق في الواقع الأكاديمي الأمريكي كله ، فهو يعتبر البحث الأشتراقي هو بحث جرى كمقدمة للامبريالية والاستعمارية ولغزو الشرق والسيطرة عليه ، وهنا دار ولا يزال يدور السجال الأكاديمي والمناظرات المتضمنة للحجج والحجج المضادة بشكل لا نستطيع حصره في هذه الدراسة .. لقد قام ادورد سعيد وقبل رحيله عن عالمنا - بالتأكيد على نظريته بأن أبحاث مثل أبحاث فؤاد عجمي ودانيال بايز وبرنارد لويس ومارتين كرامر وستانلي كيرتز وغيرهم هي أبحاث «صنعت» لتبرر ما أسماه البعض في الواقع الأكاديمي الأمريكي «بالامبريالية الإنجيلية / الاستعمارية الجديدة» . وكان نداء إدوارد سعيد وفي الحقيقة أعداد كبيرة من الأكاديميين الأمريكيين المؤيدين له - ومن خلال مناظرات واسعة النطاق في الجامعات الأمريكية - بأن هناك معارضة أن تتحول الجامعات إلى «بوليس سرى للامبراطورية الجديدة» (Emissary of Empire) حيث تكون هناك الدراسات المبررة للتحركات السياسية للامبراطورية ولما سُمي «بالحرب العادلة» و «تجفيف المنابع» وما إلى ذلك من مفردات القاموس السياسي الامبراطوري الجديد وهذه القطاعات المعارضة ترى أن في هذا اعتماد عن البحث العلمي الرصين الباحث على الحقيقة من أجل أهداف التفاعل الإيجابي المطلوبة بين البشر . وليس لإضفاء شكل العلم على تزييف أو تفعيل لأجندات سياسية جائرة أو قد تكون كذلك .

إذا كان ما سبق يوضح طبيعة المناظرة بين طرف «الطرح الأول» و «الطرح الثاني» أعلاه ، إلا أن النقد الذي وجه إلى ادورد سعيد أنه هو الآخر يتبع أجندة سياسية تحرك أبحاثه حتى النخاع وأنه «دجمائي واطلاقي» و «تعميمي» ، في هذا

■ **المعادلة الثالثة : البحث العلمي والاجندة السياسية العادلة : رؤية تحليلية من واقع ملف خطاب إدوارد سعيد**

■ **المناظرة العلمية القائمة في الجامعات الامريكية اليوم:**

عدم انصاف ودقة لادورد سعيد وطروحاته من وجهة نظر كاتب السطور - حيث أن الدراسة المتأنية لخطابه توضح مصداقيته في ربط أجدته العلمية بالسياسية والتميز في الطرح العلمى وكذلك فى الطرح السياسى - لأنه فى كليهما كان باحثاً عن الحقيقة متصدياً للتسلط والقهر أى كان مصدره فى طرح تنويرى رفيع المستوى ، وهنا نرصد ملامح سريعة من أشكال هذه المصادقية ، فمثلاً وبالرغم من اختياره ليكون عضواً بالمجلس التشريعى الفلسطينى ، إلا أن ذلك لم يمنعه من توجيه النقد الشديد للسلطة الفلسطينية ورئيسها ياسر عرفات ، حينما رأى أن الأمور كانت تتطلب مثل هذا النقد ، فلقد وصف اتفاقية أوسلو بأنها «سراب» (Mirage) سيؤدى إلى التنازلات التى ستؤدى إلى المزيد منها . ولقد صحت رؤيته فى حينها عقب توقيع اتفاقية أوسلو<sup>(١)</sup> وهناك عشرات من المواقف الأخرى له فى هذا الصدد حيث أنه كان لا يتفاعل ليرضى أحداً بل ليرضى ضميره وما يراه من منطق للمسألة موضع الحوار . ونقد سعيد للسلطة ومشاريع السلام التى أقدمت عليها لم يمنع ادورد سعيد لأن يكون داعية للسلام العادل ويكون من أكبر نشاطه ويسوق الحجج المختلفة التى يرى أنها تؤدى إليه<sup>(٢)</sup> . لقد رأى دائماً أهمية الابتعاد عن دوائر العنف ودعا إلى إتفاضة سلمية تدعمها دبلوماسية الحقوق التى ستكون لها الغلبة فى النهاية - وكان متأثراً فى ذلك بنموذج جنوب أفريقيا - إلا أنه دعى إلى أهمية النظر للصورة الكلية وإلى أن صور الإرهاب والقمع التى تمارس ضد الفلسطينيين فتدفعهم للتعف المضاد للدفاع عن أنفسهم هى صور من القمع وانتهاك حقوق الإنسان التى لم يرى العالم فى تاريخه مثيلاً لها ، وكان يرى أن التأييد الأعمى الأمريكى لإسرائيل هو السبب فى وصول الأمور إلى المأزق الراهن . وهنا كان يطرح الحجة القوية والبرهان العلمى الساطع . وعلى الرغم من أن مسميات راجلنا الكبير كانت على غرار أنه أحد أهم مفكرى هذا العصر وأر ايجابية عديدة إلا أن موقفه السياسى فى العلم وفى ذلك جعله هدفاً مستمراً للعربى الصهيونى ، فأسموه «بأستاذ الرعب» (Professor of Terror) و «المفكر الإرهابى» Intellectual Terrorist .

ومثل هذه الأوصاف العدوانية جاءت مؤخراً مرة أخرى ضمن باقة من أبشع الأوصاف الخارجة عن أدنى صور اللياقة والكتابة الأكاديمية الملتزمة من أعضاء بمعهد له اسم غريب وهو «معهد علمنة المجتمع الإسلامى»<sup>(٣)</sup> واسم المعهد فيه من التسلط ولغة الاكراه المقيتة الكثير . والطريف ، أن ادورد سعيد وطبقاً لأصحاب

Bleier, Ronald, "on said's the mirage of oslo (rbleier Igc. org.)

(١) راجع :

(٢) راجع على سبيل المثال ، سعيد ، وإدوارد «نظرة إلى المستقبل» الحياة اللندنية ٢٠٠٣/٤/٧ و «الاعلام الأمريكى المستقل وحادث أوكلاهوما الحياة اللندنية ٩٥/٥/٨ .

Ibn Warraq, "Debunking Edward said", Institute for the Secularisation of Islamic Society" 11/7/2003.

(٣)

مدارس التصنيف في العالم العربي والغربي فإنه «علماني» بمعنى أنه من الذين يفتعلون الدين عن السياسة طبقاً لأحد مستويات مفهوم العلمنة .

من هنا كان هجومه الشديد على جورج بوش الذي خفض الحاجز بين الدين والسياسة بتبنيه «للنبوءات الدينية» لمن سماها «بالمسيحيين الصهاينة / المتصهينيين» ومن وجهة نظر سعيد أن الزج بالدين في أمور السياسة على طريقة اليمين الأمريكي المتطرف سيؤدي إلى كوارث وهو رده عن الليبرالية الأمريكية المعروفة ، وحينما وصفه البعض بأنه «المدافع عن الإسلام» (Islam Defender) قال أنه المدافع عن الحقيقة . فأى «علمنة» يريد هذا المعهد الذي كن كل أنواع السباب لادورد سعيد . هذا ولم يخلو الأمر بالطبع من وصمة «بمعاداة السامية» تلك التهمة الجاهزة دائماً . إن الرجل يتحدث من خلال الحجج العلمية التي تتعد عن الأدلة الفاسدة التي يروج له من يسبونه . من هنا احترامه كل أصحاب العلم والعقول المنصفة وسبه سفهاء التزوير والتزييف المحتفين وراء «علم مفتعل ومسيس» يكتشف أمره بسهولة عند التحليل الصارم ، وها هو W. J. T Mitchell محرر مجلة الاستقصاء النقدي يكتب مقالاً نشرته دورية التعليم العالي يعنى فيه سعيد بمقال بعنوان «الضمير النقدي يتذكر ادورد سعيد فيقول بالنص :

## ■ سعيد «وسيف معاداة السامية»

«إن ظهور ادورد سعيد في تفاعلات الرأي العام الأمريكي وقد صاحبه وباء التهديد بالقتل الذي كان دائماً مالا يلتفت إليه إدوارد (كما كان لا يلتفت إلى مرض السرطان الذي أصابه) . وكذلك كان المتحدثون الذين يوجهون إليه الأسئلة - يحاولون تأطير كلماته على كونها «معاداة للسامية» . وكانوا يصنفون تعليقاته الناقدة للسياسة الإسرائيلية بأنها «أفعال معادية للسامية» وكانوا يسوقون إليه اتهامات بالعنصرية وذلك في إطار حملة استهدفته واستهدفت كل من يضع علامات استفهام بخصوص سياسات إسرائيل»<sup>(١)</sup> .

وهنا يقول ميتشل «وإذا كان الأمر على هذا المنوال فلا نخشى أن نكون كلنا «إدوارد سعيد»<sup>(٢)</sup> وهذه المقولة هي أنتصار واضح للعلم من أجل الحقائق والبراهين الساطعة ودحض وامتعاض وتمرد على ضغوط التزييف والكذب والتلفيق الصهيونية التي سأمها كل غيور على كرامته وسلامة ذهنيته وضميره . فها هو ادورد سعيد ينتصر له بعد مماته من خلال كلمات ميتشل . وها هو الضمير الأوروبي لشعوب الاتحاد الأوروبي يقول كلمته الواضحة في الاستفتاء الذي طرحه الاتحاد الأوروبي (في نوفمبر ٢٠٠٣) عن الدول التي تعد مصدر التهديد للسلام العالمي . فجاءت

Mitchell, W J. The chronicle of Higher Education, oct. 1. 2003.

(١) راجع

(٢) السابق .

الإجابة صدمة للسياسة الإسرائيلية والدبلوماسية الأوروبية حيث أعتبر ٦٠ ٪ من العينة أن إسرائيل هي الخطر الأول على السلام العالمي . كما وضعوا الولايات المتحدة الأمريكية جنباً إلى جنب الدول التي تعتبر كمصدر للتهديد الدولي» . وهو ما يؤكد كل أصحاب العقول المنصفة ومن يتصدى للسياسة بعقلية التحليل العلمي الموضوعى وهو ما كان يقوم به ادورد سعيد ونوم تشومسكى وغيرهما من العشرات من الباحثين الذين يربطون العلم بأجندة السياسة المرتبطة بالعدل والانصاف . ومن الملاحظ هنا أن قوة الخلفية العلمية الحقيقية لكل من ادورد سعيد ونوم تشومسكى قد دعمت إلى أبعد الحدود أرضية النقد الواضح واللازم الذى ظللا يوجهونه ومن هم على غرارهم للمؤسسة السياسية الأمريكية والإسرائيلية (فى تفاعلات التجاوزات الواضحة) ، خاصة وأن لكل منهما رصيذاً لا يمكن تجاهله ولا يمكن له التصنيف والتأطير الصهيونية أن يكون لها تأثير حقيقى يذكر أمام صدق وقوة الحججة . وحقائق الأمور فى نهاية المطاف .

وإذا كان أحد الأمريكيين من أصحاب العقول المنصفة مثل ميتشل الذى استشهدنا بمقولته التى ذكر فيها «إذا كان ما فعله ادورد سعيد طبقاً للبعض على كونه «معاداة للسامية» ، فإننا كلنا ادورد سعيد ، ذلك بعد أن رحل ادورد سعيد ووجب تأمل ما قدم من جهود غير مسبوقه ، فإن هناك العديد من المقالات المماثلة التى تحمل نفس اللواء الذى رفعه ادورد سعيد ، ففى مقال على درجة كبيرة من الأهمية لكاتبه فيجاي براشاد (وهو مدير الدراسات الدولية بكلية ترينيتى) بعنوان : «فى مواجهة الإنجليين الامبيراليين»<sup>(١)</sup> ينتقد فيه مشروع قرار جديد للكونجرس الأمريكى وينادى بتكاتف كل المنمين والمدافعين عن واقع أكاديمى حر كصمام أمان للمجتمع الأمريكى لوقف ذلك المشروع ، لأنه مشروع يرى أن من شأنه تقييد حرية البحث العلمى وصيغ مجالات الدراسات الأكاديمية لتبرير التحركات السياسية الأمبراطورية أو ما أطلق عليه «الأمبرالية الإنجليزية الجديدة» ، ويرصد بالتفصيل أوجه النقد العديدة فى هذا الصدد ويعود ليستشهد بمقولات عديدة لادورد سعيد من دراسته عن «الاستشراق» وكذلك ارائه فى هذا الصدد قبل رحيله خاصة فيما يتعلق بدقة لناقوس الخطر على الواقع الأكاديمى اليوم من جراء التدخل الحكومى لصالح سياسات بعينها ورصد ميزانيات ضخمة فى هذا الصدد .

(١) راجع Prashad, Vijay, "Confronting the Evangelical Imperialists, Counter punch, political News letter, Nov. 13, 2003.

## ■ المعادلة الرابعة :إدارة عمليات النقد المزدوج وبناء القوة المزدوج

بناء القوة فى الداخل كأساس للتأثير الإيجابى فى الخارج وتدشين جسور التفاعل الإيجابى وثقافة الحوار والتفاوض الإيجابى بين عناصر الأمة لإعادة هيكلة المواقف التفاوضية على الصعيد الخارجى .

وهذه المعادلة تقترب كثيراً مما وصفه السيد يسين «بالنقد المزدوج» . لاشك أن أمر التضامن الداخلى وإدارة الاختلافات بشكل فعال لهى من أهم عناصر القوة للعرب والمسلمين وبناء الجسور بين الجاليات العربية الإسلامية وقواعد الوطن الرئيسى لها (هو من الأمور الحيوية المطلوب تحقيقها . فهذا من شأنه إعادة هيكلة أرضية التفاوض والحوار بما يسمح بأن يحترم الجميع كلمتنا . ولهذا الأمر تحركات مهمة ينبغى إدراكها لتفعيل وضبط هذه المعادلة ، وما يمكننا رؤيته ورصده فى خطاب ادورد سعيد يتمشى تماماً مع قناعات كل مخلص لهذه الأمة العريقة التى لا بد لها أن تعيد صفوفها وتنظمها خاصة فى هذه الأوضاع المستجدة الصعبة ، وهنا نرصد ما يلى من خطاب ادورد سعيد :

(أ) السعى لمنع عملية اختطاف الإسلام ليعبر عنه أنصار العنف والهجوم على الأهداف المدنية وكذلك بناء الجسور مع كل من يعارض أختطاف الشرعية الدولية والخروج عنها وتحويل العالم إلى جزيرة كبرى من الفوضى ومن العنف والعنف المضاد .

(ب) كشف زيف «صراع الحضارات» والترويج له وهو ما أسماه ادورد سعيد «بصدام الجهالات» Clashes of Ignorances<sup>(١)</sup> .

(ج) تفعيل التضامن العربى / العربى والعربى / الإسلامى والعربى الإسلامى / الدولى وإدارة الصراع بمستوى إنسانى احتوائى يتحلى بالقوة المعنوية والمادية الفاعلة . (راجع مقال سعيد فى هذا الاطار بعنوان «نظرة إلى المستقبل»<sup>(٢)</sup> .

(د) عدم التردد فى تصحيح أخطاء الداخل العربى الإسلامى الباهظة التكاليف والتى هى فى عرض مستمر .. والتعامل بجديّة فى هذا الصدد ونبذ فكر «التسحلف» والتحدى الخاطئ .. لأنه وفى خضم الحملة المسعورة ذات الأهداف الخبيثة ضدنا .. لا يمكن لأى عاقل ومنتمى بحق لهذه الأمة أن يتجاهل الأوصاف الخاصة بسمات التدهور الراهن فى العالم العربى الإسلامى من قلة الديمقراطية أو انعدامها وإلغاء مبدأ التداول الصحى والإنسانى للسلطة وما إلى ذلك من اتهامات «صحيحة مع الأسف» . فلا نصح هذه الأوضاع المزرية . لأنها جاءت على لسان هذا أو ذاك بعقلية العند السلبي وتبنى سيناريو النعامة .

(١) راجع Said, Edward, "Clash of Ignorance", www.zmag.org/said clash. htm.

(٢) راجع ، سعيد ، إدوارد «نظرة إلى المستقبل» الحياة اللدنية ٢٠٠٣/٤/٧ .

## المعادلة الخامسة: السعى لإعادة كتابة التاريخ من منظور عربي إسلامي

من خلال حشد جهود تدشين الأرشيف العربي والسعى لفكر التوصيل الجيد إلى الغرب .. لإعادة كتابة التاريخ على أسس راسخة تتعامل مع مستويات عديدة من عدم الدقة وكذلك مع الزيف الكبير القائم وتدحضه في محاولة مطلوبة لإعادة أمور كثيرة لنصابها وهنا يتردد ويتكرر في خطاب ادورد سعيد نداؤه بأهمية كتابة التاريخ الفلسطيني ، فادورد سعيد يرى أن ما كُتب في الغرب عن هذا التاريخ الفلسطيني تحديداً قد كُتب بأقلام إسرائيلية أو أمريكية أو غربية عموماً أما الجهود العربية فهي لا تزال متناثرة وغير مكتملة وغير متوفرة للغربيين . وفي هذا تقصير كبير ، وأتذكر هنا نفس هذه المقولة التي ردها لي المفكر الكبير ناعوم تشومسكي أثناء حوار لي معه ، عندما طرح رؤية معلوماتية غير دقيقة عن حرب أكتوبر رمضان المجيدة وما تلاها من أحداث ، وقمت بتنفيذ أطروحاته ومناقشتها ، فكان رده بأسلوب العالم الكبير والمتواضع تواضع العلماء أن قال لي «أشكرك لتصحيح المعلومة ، ولكن تعرف أن مشكلتكم الكبيرة تتمثل في عدم وجود «الأرشيف العربي الذي يصل لنا في الغرب، فنعتمد على الأرشيف الغربي والإسرائيلي»<sup>(١)</sup> . اختتمت هذه الجزئية بالقول ، بأننا نفقد الكثير بعدم إدارة هذه المعادلة المهمة على الوجه المطلوب ، فمثلاً إذا لم نستطع أن نستخدم حرب أكتوبر رمضان المجيدة كأداة من أدوات الردع الاستراتيجي - من خلال تفويت فرصة على مزيفي الحقائق والوقائع التاريخية .

فإننا نخطئ خطأين ، الأول في حق أنفسنا لأن ثمن عدم الردع سيكون كبيراً والثاني أن يصدق المزيّفون زيفهم ويتحرك الواهمون من أصحاب قصر النظر السياسي والإنساني من دعاة سلسلة الحروب لتجفيف ما أسموه «بالمستنقع العربي الإسلامي» !! . إن ترك الزيف والمعلومات الخاطئة والمغلوطة دون تصحيح بصوت يصل وبأسلوب علمي له تأثيره يمكن «أصحاب تلك القلة الاستراتيجية» الداعية لشن الحروب بالوكالة لصالح أجنحة التوسع الإسرائيلي من ترويح الأكاذيب للرأى العام الأمريكي والغربي عموماً ليعطى الضوء الأخضر لحروب جائرة ولظلم إنساني لا ينتفر.. من هنا كان لابد من التحرك العلمى المدروس لتفعيل هذه المعادلة الخامسة وتفعيل حزمة كل هذه المعادلات الخمسة التي تحدثنا عنها بفكر التراكم وتفعيل كل طاقات هذه الأمة في إطار سيناريو معيارى Normative Scenario نضعه كخطة قصيرة المدى وطويلة المدى واجبة التفعيل لإظهار المعدن الصلب والشمين لجوهر هذه الأمة العربية الإسلامية المعطاءة دوماً للحضارة الإنسانية ولهذا العالم - فإن توفرت الإرادة - فهي لن تعجز عن استدعاء كل عوامل قوتها واستنفار جهود كل أبنائها وعلمائها المنتشرون في كل بقاع الأرض ممن يبنون التنمية ويسعون للنماء في كافة

(١) راجع ، مقابلة كاتب السطور مع ناعوم تشومسكي ، اخبار الأدب ١٠/٣/١٩٩٣ .

المجالات . ويكفى أن تكون البداية القوية من «جند مصر» فى كافة المجالات والتخصصات «فهم فى رباط إلى «يوم الدين» كما أخبرنا الرسول ﷺ ولقد استطاعت هذه الأمة أن تواجه التحديات كلما ازدادت حلقة الليل سواداً .. وعلينا أن نعمل بفكر الترايط والتراكم العلمى والمنهجى وعلنا نكون قد استطعنا توضيح ما قصدناه بمعادلات المستقبل العربى الخمسة كأساس منهجى أولى لإدارة العلاقات المركبة بين العالم العربى والإسلامى والغرب . وعلنا قد وفقنا فى محاولة تقديم رؤية لهذه المعادلات من خلال قراءة التراث الفكرى والعلمى - بصورة أولية - فى سياقنا هذا لابن بار من أبناء الثقافة العربية الإسلامية وهو الراحل المفكر الكبير المناضل العربى الأصيل إدوارد سعيد الذى كان عطائه متميزاً وغزيراً . وعلنا نكون بذلك قد وضعنا إحدى لبنات التراكم المطلوب والمفتقد إلى أبعد الحدود فى ممارسات واقعنا الثقافى والأكاديمى والسياسى والله ولى التوفيق وهو وحده المستعان .